الفصل التاسع

الحملات الصّليبية المتاخرة

حملة نيكوبوليس الصّليبية

لدى إذعانها لسقوط الحملات الصليبية ، انتهى بالنسبة للمسيحية كل استعمار لها في آسيا الإسلامية (1291 م) . وبأقل من قرن فيما بعد ، كانت آسيا الإسلامية نفسها هي التي تقوم بغزو المسيحية ، وذلك بمهاجمتها في أضعف نقطة فيها ، أي في الإمبراطورية البيزنطية (1362 م) .

ومنذ عام 1261 وقعت على عاتق الهيلينية البيزنطية من جديد مهمة الدفاع عن المضائق ، مفتاح القارة الأوروبية . لكن «الحملة الصليبية» الغربية التي قامت عام 1204 كما رأينا بإدخال «رومية» في عداد البلقان أضعفت الإمبراطورية الهرمة بشكل لا يُعوَّض . ولم يكن بوسع الهيلينية المتجددة في القسطنطينية على أيدي الأباطرة من آل پاليولوگوس (1261–1453 م) والمقتصرة على تراقيا ومقدونيا والشريط الغربي من الأناضول أن تدافع طويلاً عن هذه المساحة المتقلّصة .

نجح الأتراك المتمركزون منذ مبدأ القرن الرابع عشر على التخوم الفريجية البيثينية بانتزاع بيثينيا منهم مع بورصة (1326 م) ونيقية (1331 م) ، ثم استخلصوا مضائق الدردنيل واحتلّوا بقيادة سلطانهم مراد الأول القسم الأعظم من تراقيا بما في ذلك إدرنه Andrinople (1362) . وبذلك تم تطويق بيزنطة (القسطنطينية) . حيال هذا الخطر الداهم حاول البابا أوربان الخامس Urbain V بثّ حملة صليبية ، فكان الحاكم الوحيد الذي استجاب لندائه كونت ساڤوا أميديه السادس Amédée VI الذي اقتصرت بعثته على استعادة گاليپولي Gallipoli الواقعة على الدردنيل بشكل جدّ مؤقت (آب 1366) . ثم في 20 حزيران 1389 سحق الأتراك الجيش الصربي في كوسوڤو Kossovo ، وكان ذلك النصر الحاسم كفيلاً ببسط سيطرتهم على البلقان برمّته .

كان الفتح العثماني قد وصل إلى نهر الدانوب ، ولما رأى ملك هنگاريا سيگيسموند Sigismond نفسه مهدداً بشكل مباشر ، استصرخ إطلاق حملة صليبية جديدة . تلك كانت «حملة نيكوپوليس الصليبية» ، وهي تمثل في الواقع المجهود الحقيقي الأخير للغرب لإنقاذ الدول البلقانية . وكان القسم الأعظم من هؤلاء الصليبيين قادماً من فرنسا أو من الإمبراطورية المقدّسة ، ونذكر من بينهم جان الجسور Jean Sans-Peur ولي عهد دوقيّة بورگونْيْ والماريشال بوسيكو Boucicaut ، والأميرال جان دى ڤيينا Jean de Vienne ، بالإضافة إلى ملك هنگاريا بالطبع .

التقت جموع الصليبيين بجيش السلطان بيازيد (Bajazet) على الضفة البلغارية لنهر الدانوب ، بالقرب من نيكوپوليس في 12 أيلول 1396 م . ولم يدر في خلد النبلاء الفرانكو بورگونيين اللامبالين مدى التقدّم الكبير الذي أحرزته القوة العسكرية للجيش العثماني من حيث القدرة والفاعلية ، فقد مضوا في حملتهم وكأنهم كانوا ذاهبين إلى حفل للمتعة . . تلك كانت روح معركتي كريسي وآزينكور[1] ! وقذفوا بأنفسهم إلى عسكر الإنكشارية[2] دون أن يتيحوا الفرصة للهنگاريين للانضمام إليهم . ولم تُجدِ شجاعتهم الجنونية في درء الكارثة ، وباستثناء بعض الأمراء الذين افتدوا أنفسهم بالمال ، تم ضرب رقاب جميع أفراد الحملة الصليبية الفرنسية بأسرهم ، بما في ذلك الأسرى .

كان من جرّاء هذه الهزيمة الفادحة ، أن خارت عزائم الغرب عن استثارة حملات صليبية جديدة ، وأما الأربعمائة رجل الذين أرسلوا من بلاط شارل السادس لنجدة القسطنطينية تحت إمرة بوسيكو ، فما كانوا بالقادرين على إنقاذ المدينة (1399 م) . وكان من الواضح أن «الإمبراطورية» البيزنطية قد باتت وشيكة السقوط ، عندما نجت بفعل تدخل غير متوقع ؛ وذلك أن تدخّل الغازي القادم من وراء النهر تيمورلنك أسفر ، في 20 تموز 1402 م ، عن الانتصار على بيازيد الرهيب وأسره في أنقرة .

---

(1) تقدّم ذكر هاتين المعركتين Crécy et Azincourt ، جرتا بين الفرنسيين والإنكليز في حرب المائة عام ، وهزم فيهما الفرنسيون . كانت أولاهما عام 1364 والثانية 1415 م .

(2) الإنكشارية فرق من الجيش العثماني بمثابة الوحدات الخاصة Forces d'Elite الفائقة التّدريب . والتسمية في التركية Yeniçeriler تعني : عسكر النّظام الجديد .

الحملات الصليبية الهنگارية ، جان هونيادي

أدّت معركة أنقرة التي شلّت القوة التركية لفترة من الزمن إلى إتاحة مهلة جديدة من الحياة لبيزنطة لمدة نصف قرن . ولكن هذه النكسة في القدرة العسكرية العثمانية لم يُحسن أصحاب المصلحة الإفادة منها . وعندما تم تحقيق النهضة التركية من جديد هرع الإمبراطور البيزنطي جان الثامن إلى إيطاليا يلتمس دونما جدوى من البابوية إرسال حملات صليبية جديدة (1438–1439 م) .

ولم يستجب لندائه هذا غير الهنگاريين ، تحت قيادة القائد الباسل جان هونيادي Jean Hunyadi . وبالفعل ، استطاع هونيادي إرغام الأتراك على رفع الحصار عن بلگراد Belgrade (1440 م) ، ثم هزمهم عند نيش Nich واستعاد منهم صوفيا Sofia . وكاد السلطان مُراد الثاني الذي ثبطت همّته أن يتخلى صلحاً عن الأقاليم الدانوبية وعن بلغاريا ، فقوبل بالرفض من قبل المجلس التشريعي الهنگاري ، بتأثير من المبعوثين البابويين .

استمرّت الحرب ، ولكن في هذه المرة تمكن مُراد الثاني من سحق الجيش الهنگاري في ڤارنا Varna ببلغاريا (10 تشرين الثاني 1444 م) . وأما أسطول البنادقة وأسطول البابا أوجين الرابع Eugène IV اللذين كانا يهدفان إلى تحويل أنظار العدو ، فلم يتمكنا من التحرّك في الوقت المناسب . وأعاد جان هونيادي الكرّة محاولاً تحرير البلقان ، لكنه هُزم من جديد على أيدي التُّرك في كوسوڤو في صربيا ، بسبب خطأ البلقانيين أنفسهم جزئياً (17–19 تشرين الأول 1448 م) .

من سقوط القسطنطينية إلى معركة ليپانتو

إثر سقوط الحملة الصليبية الهنگارية ، كانت أيام القسطنطينية قد غدت معدودة . وفي شهر نيسان من عام 1453 شرع السلطان محمد الثاني في محاصرة المدينة[1] التي كان يدافع عنها آخر أباطرة آل پاليولوگوس ، الإمبراطور الباسل قنسطنطين دراگازيس Constantin Dragasès . وبدا الغرب غير مكترث لما سوف يؤول إليه مصير المحصورين .

---

(1) اعتبر المؤرخون فتح القسطنطينية أعظم فتح إسلامي في خاتمة القرون الوسطى ، حتى أنهم اتخذوه نهاية لهذه القرون وبداية للعصور الحديثة .

ولم يشارك في الدفاع سوى وحدات ضئيلة من المتطوّعة اللاتين ، ومعظمهم من البنادقة أو الجنويين (البابيل البندقي جيرولامو مينوتّو Girolamo Minotto ، والقرصان الجنوي جوڤانّي جوستينياني Giovanni Giustiniani) ، أما الأسطول البندقي والبابوي المرسل من إيطاليا فقد وصل متأخراً جداً ، وأما الهنگاريون فلم يحركوا هذه المرّة ساكناً . وفي 29 أيار من عام 1453 م ، نجح الجيش العثماني أخيراً بفتح القسطنطينية .

كان على المسيحية ، التي لم تُبال بإنقاذ القسطنطينية ، أن تدفع ثمن آثرتها غالياً . فما أن أضحى الأتراك أسياد المضائق ، حتى صار بوسعهم التفرّغ لجبهة البحر المتوسط وجبهة الدانوب . فها هم أولاء ينزلون في إيطاليا ويغيرون على أوترانته Otrante (11 آب 1480) . أما في الشمال ، فبعد أن تم إخضاع البلقان جاء دور هنگاريا ، وأفلح السلطان سليمان القانوني في سحق الجيش الهنگاري في موهاكس Mohacs (28 آب 1526) ، ونزل على ڤيينا يحاصرها (27 أيلول – 15 تشرين الأول 1529 م) . ولم يتوقف الغزو العثماني من هذه الجهة سوى عند عاصمة آل هابسبورك Habsburg (ڤيينا) .

وفي الجهة المعاكسة ، في شرقي البحر المتوسط ، كان النصر حليف الأتراك أينما اتجهوا . فانتزعوا ، كما رأينا ، جزيرة رودُس من فرسان المشفى (22 كانون الأول 1522) ، وقبرص من البنادقة (احتلال فاماگوستا ، أول آب 1571) .

وأخيراً ، وبإيعاز من البابا پيوس الخامس Pie V ، تألفت رابطة مسيحية للدفاع ، وضمّت إسپانيا والبنادقة وفرسان مالطا . وأحرزت أساطيل الحلفاء ، تحت قيادة دون خوان دوق النّمسا Don Juan d'Autriche ، في 7 تشرين الأول 1571 بموقعة ليپانتو Lepanto ، نصراً كان – رغم أنه لم يتبعه انتصارات حاسمة على البر – كفيلاً (بالإضافة إلى تخليص ڤيينا على صعيد البر) بإيقاف زحف الغزو العثماني .

* * *